دراسات في السنن الإلهية

نحو تفسير سُنَنِي
للقرآن الكريم

د. رمضان خميس زكي الغريب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد في قسم أصول الدين
كلية الدراسات الإسلامية والعربية – جامعة الأزهر، القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

رقم الإيداع: / ٢٠١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد ﷺ وآله وصحبه ومن والاه وبعد

فهذا تصور مقترح لمشروع تفسير في جانب جديد من جوانب العظمة والإعجاز في القرآن الكريم، لم يأخذ حظه من العناية، بما يتناسب مع عناية القرآن الكريم به، بعنوان:

نحو تفسير سنني للقرآن الكريم

ويمكن أن يشرح الفكرة ويبين أبعادها النقاط الآتية:

المقدمة:

إن موضوع السنن الربانية من الأهمية بمكان، ورغم خطورة إهماله وضرورة الحديث عنه إلا أنه لم يأخذ من تفكير المسلمين في القديم أو الحديث إلا النذر اليسير، فإذا كانت آيات القرآن الكريم ستة آلاف ومائتين وستة وثلاثين آية، على اختلاف بين العادين[1]، وآيات الأحكام والمعاملات لا تزيد على خمسمائة آية، فإن المسلمين حصروا

١- انظر الإتقان في علوم القرآن، ٦٧/١، ط: المكتبة الثقافية، بيروت لبنان.

أنفسهم – إلا من رحم الله– في هذا الجزء اليسير الذي لا يتجاوز ١٢/١ تقريبا من مجموع آيات القرآن الكريم، فدخلوا في فروع الفقه ومسائله، وفروع فروعه وتفصيلاته، في الوقت الذي يرون فيه أن القرآن الكريم لم يترك مسألة من مسائل عمارة الأرض وإثارة خيرها والانتفاع بما فيها إلا ولمسها وتحدث عنها.

إن القرآن الكريم غني بالجوانب الحضارية التي تتكفل بأن تنشئ أمة وتحيي جيلا، وتقود الناس إلى طريق الله رب العالمين، لكن الأزمة ليست في غياب المنهج الذي يضبط ولكن في العقل الذي يدرك، والقلب الذي يعي، والجارحة التي تعمل وتنفذ.

وجانب السنن الربانية في القرآن الكريم من الجوانب المغموطة المهضومة التي لم يلتفت إليها كثير من المفسرين، قدامى ومحدثين، إلا عدد لا يمكن أن يغني في هذا الجانب، ولم تفرد السنن الربانية باتجاه واضح، ولم تخدم خدمة مغنية كما خدم الجانب اللغوي والبياني والبلاغي والعلمي، وكثير من الجوانب في القرآن الكريم.

لقد عُنيتُ بموضوع السنن عناية ملكت علي فكري؛ لقناعتي بأنه لم يأخذ حقه في البيان والتوضيح كما أخذت جوانب كثيرة من القرآن الكريم حقها في القديم والحديث، فكتبت عن:

١– مفهوم السنن الربانية في ضوء القرآن الكريم من الإدراك إلى التسخير.

٢- فقه السنن لدى الشيخ محمد عبده وموقف المسلمين منها بين الإعمال والإهمال.

٣- سنة الله في إهلاك الأمم وموقف المسلمين منها قراءة في تفسير المنار.

٤- السنن الربانية لدى الشيخ حسن البنا بين التأصيل والتطبيق.

٥- سنة الله في التمكين في المنظور القرآني.

٦- سنة الله في القلة والكثرة وموقف المسلمين منها بين الوعي والسعي.

٧- معالم السنن الربانية في ضوء الثورة المصرية.

إلى جانب مشروع أسأل لله تمامه في هذا الجانب، وكلما خطوت خطوة زادتني ثقة ويقينا بأننا في حاجة ماسة إلى خدمة القرآن الكريم من هذه الزاوية، فعلم السنن والدراسات الاستشرافية لها ما لها من أثر في نهضة الأمم والشعوب، من هنا كانت هذه الفكرة لهذا المشروع.

١- المفهوم: التفسير السنني للقرآن الكريم: تفسير يقوم على استهداف إبراز جانب السنن الربانية في القرآن الكريم، من خلال تتبعها في السور والآيات، ورصد دلالاتها وما يفيد منه المسلمون في صحوتهم ويقظتهم الحضارية، وهذه الدورة الحضارية التي يعيشونها،

والتي سيكون لهم فيها أثر كما كان لسلفهم من قبل، على الرغم من الآلام التي تعترض طريقهم؛ فلابد للأمة من ميلاد ولابد للميلاد من مخاض ولابد للمخاض من آلام.

٢- الأهداف: يستهدف هذا المشروع ما يأتي:

١- التوفر على النظرة السننية في القرآن الكريم وخدمتها حتى يفيد منها المسلمون خاصة والإنسانية عامة.

٢- إبراز الاتجاه السنني في القرآن الكريم من خلال رصد آيات السنن ومعالجتها وفق خطة محكمة يتوفر عليها عدد من المختصين والرواد في هذا الجانب.

٣- جرد سنني كامل للقرآن الكريم يكون مادة ثرية كريمة تصلح للتشريح والبيان والإفادة والتحليل والتعليل.

٤- لفت أنظار التخصصات القريبة إلى الإفادة من هذه المادة سواء في علم التاريخ، أو الاجتماع، أو العمران، أو غيره.

٣- خطة التفسير السنني للقرآن الكريم:

أتصور خطة العمل في هذا المشروع تقوم على المراحل الآتية:

١- مرحلة الجرد السنني لآيات وسور القرآن الكريم بغرض استخراجها وحشدها في موضع واحد.

٢- تصنيف موضوعي لهذه الآيات بحيث يجمع في كل سنة ما يدخل تحتها من الآيات الكريمة.

٣- مرحلة مراجعة هذا الحشد حسب ضوابط تعريف السنن ومواطن ورودها في القرآن الكريم.

٤- مرحلة التناول، ويمكن أن تكون هـــذه المرحلـــة علـــى صورتين:

الأولى: تناول ُسُوَري تسلسلي، يقوم على تناول القـــرآن الكريم سورة، سورة، وبيان ما فيها من سنن بعد ربطهـــا ربطا طبيعيا بمحاور السورة وموضوعها أو موضوعاهما.

والثانية: تناوُل موضوعي، يقوم على جمع آيـــات الـــسنة الواحدة وتناولها تفسيريا حسب المنهج الموضوعي.

٤- المنهجية: تخضع المنهجية لضوابط التفسير الموضوعي حـــتى يكون الحكم فيها حكما قرآنياً كلياً.

٥- مصادر التفسير السنني للقرآن الكريم:

أما مصادر التفسير السنني للقرآن الكريم، فتقوم أساساً على جميع مصادر التفسير التحليلي، ثم نعمد إلى التفاسير التي عنيت بالجانـــب السنني واهتمت به كتفسير المنار، فننهل من تـــصورها وتناولهـــا، ثم العناية بكتب ابن خلدون ونظرياتـــه الرائـــدة في علـــم الاجتمـــاع العمراني، وكُتّاب النهضة الذين أفادوا من مدرسة ابن خلدون، وإن كان تناولهم تناولا اجتماعيا إنسانيا مثل كتابات مالك بـــن نـــبي،

وجودت سعيد، وماجد عرسان، والطيب برغوث وغيرهم ممن عنوا بجانب السنن.

٦- نموذج للجرد السنني:

وفيه يتم اختيار سورة من سور القرآن الكريم، وجرد السنن الربانية من خلالها، مع إبراز الجانب التطبيقي لفكرة المشروع في شقه الأول.

٧- نموذج للجرد الموضوعي:

وفيه يتم جرد موضوعي لسنة من السنن الربانية على طول القرآن الكريم وعرضه، مع إبراز الجانب التطبيقي لفكرة المشروع في شقه الثاني.

وبهذا يكون قد حاولنا محاولة عملية في إبراز الفكرة على المستويين التأصيلي النظري، والتطبيقي العملي.

ولهذا الإجمال تبيين وتفصيل، محله الصفحات الآتية إن شاء الله.

والله وحده خير مسئول ومأمول

د. رمضان خميس الغريب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك
في جامعة الأزهر

أولاً
المفهوم

المقصود بـــ: نحو تفسير سنني للقرآن الكريم

المراد بالتفسير السنني هنا: تفسير كامل يقوم من مبدأه إلى منتهاه على فكرة السنن ورصدها وإبراز مواطنها، وهو جامع للسنن الواردة في القرآن الكريم، يقوم على الجرد لسور القرآن الكـــريم، وســـوره، واستخراج السنن في كل سورة على حدة، وحصر موضوعي للسنن على مستوى القرآن الكريم، وفي الجرد السوري للسنن يقدم إضاءات على السورة الكريمة تتناول زمان ومكان نـــزولها، وأهـــم القـــضايا والمحاور التي تتناولها السورة الكريمة وتدور حولها، وأي مـــن هـــذه المحاور أساسي في السورة وأيها فرعي، وربط الـــسنن الـــواردة في السورة بتلك المحاور الأساسية، وأثر ذلك في الفهم الكلي للـــسورة، وموقع أسباب النـــزول من هذه القضية، والنظرة الصحيحة لعلاقـــة أسباب النـــزول بفهم الآية والسورة في ضوء علم السنن، بما يترتب على ذلك من فهم كلي مقاصدي لا يقوم على التجزئـــة والتفريـــق لكليات السورة الكريمة من جراء تقطيع النص الكريم حسب أسباب النـــزول، وإنما يفاد منه في مُناخه الطبيعي، وبما يترتب على هذا من

فهم كلي للنسق القرآني يرجى به تجديد الـوعي؛ ليكـون أساسـا صحيحا لإحسان السعي، ليسلم إلى تغـيير حقيقـي في المفـاهيم والسلوك يكون مقدمة لما بعده إن شاء الله.

ولا يفوتنا هنا تعريف السنن:

فهي جمع سنة والمقصود بها: القوانين الكلية والنواميس العامة، أو هي: (القانون الضابط المهيمن، والفعل النافذ الحاكم الـذي يجـري باطراد وثبات وعموم وشمول، مرتبًا على سلوك البشر)[1].

* * *

١- مفهوم السنن الربانية، د. رمضان خميس، ط: مكتبة الشروق الدولية، ط: أولى، صـ ٢٤ بتقديم أستاذنا الدكتور محمد عمارة.

ثانيا
الأهداف

يمكن أن نلخص أهداف هذا المشروع السُنَني في النقاط الآتية:

١- حصر جهود الكاتبين في السنن على مدار التاريخ التفسيري كله.

٢- الإفادة من الجهود السابقة في هذا المجال لتكون ضميمة للمشروع يَفِيد منها حسب ما قدمته من مفردات أو رؤية.

٣- التصنيف المنهجي لهذه الكتابات وبيان مدى إسهامها في هذا الباب ونوع هذا الإسهام.

٤- بيان مدى الحاجة إلى الكتابة في هذا الباب من خلال حصر الكتابات السابقة.

٥- إبراز جوانب الضعف في العناية بالتفسير السنني والحاجة إلى تفسير من هذا النوع يتناسق مع حاجة المسلمين والبشرية المتطلعة إلى ريادة ربانية، وحكم قرآني كلي، غير مجتزإ، ورؤية قرآنية سليمة.

٦- إبراز عناية القرآن الكريم بالجانب السنني الاستشرافي والاضطرادي الذي لا يتخلف في ضوء علم المستقبليات والرؤية السننية والمقاصدية.

٧- إبراز أثر الغياب السنني من الفهم الإسلامي، كله أو بعـــضه في الانحرافات الفكرية والرؤية الصادقة على عدد مـــن مـــستويات العلم والثقافة والقرار والإجراء.

٨- تسهيل التقويم؛ لحسن التوظيف، وحسن التركيـــب، وحـــسن التكميل، وما أحوج بناة الخلف إلى استيعاب جهود الـــسلف، (فإن أول التجديد قتل القديم بحث)، كما قال الأســـتاذ أمـــين الخولي، وإذا كان أعلامنا قد قدموا في مجالات شـــتى ومنـــاحي متعددة لخدمة القرآن الكريم فليقدم الجيل الحاضر لنفـــسه ولمـــن بعده ما يصلح أن يكون خطوة للأمام.

٩- تمهيد الطريق للدراسة السننية بتقديم مادة بِكْر، كاملة، تـــصلح للإفادة منها في تناول السنن. وبهذا المشروع سيتيسر الوقـــوف على ذلك بعون الله.

* * *

ثالثاً
خطة التفسير السنني

يمكن أن نبسط القول في خطة التفسير السنني على النحو الآتي:

المرحلة الأولى: تكون مرحلة تأصيل، وتأطير، وبيان، وتنظير، لمشروع السنن، يتناول بيان المصطلح، وتحديد مفهوم السنن الربانية في لسان العرب، والقرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة ، وبيان وعناية القرآن الكريم، والسنة النبوية بعلم السنن، واهتمام الصحابة بذلك، ولِمَ لمْ يدون هذا العلم؟ وهل يعد هذا دليلاً على إهمالهم لعلم السنن؟!، ثم الحديث عن خصائص السنن الربانية. وحجيتها وصيغ ورودها في القرآن الكريم، وموارد السنن الربانية، وصور التعبير عن السنن في القرآن الكريم، وبيان العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية، وخصائص السنن الكونية، ومدى التطابق بين السنن الكونية والسنن الربانية، والتطور النوعي والتاريخي للكتابة في علم السنن، وأهم من كتبوا فيه، وصولاً إلى منهجية التعامل مع السنن الربانية، والإفادة منها. والقضايا المكملة لذلك، حتى يكتمل الجانب التأصيلي النظري.

المرحلة الثانية:

وتكون مرحلة جمع وحصر، وسرد واستقصاء، للسنن في كل

سورة من سور القرآن، كل سورة على حدة، وذلك بحصر الآيـــات التي تعرض للسنن سواء أكانت آيات ناصة على الـــسنن، أو مبينـــة للعلاقة بينها وبين السنن الكونية، أو موضحة لمنهجية التعامل معها، أو لامسة لأي ترابط بينها وبين السنن، مع ربط قـــضايا الـــسورة الأساسية ومحاورها الكلية بالسنن الواردة فيها متى كان ذلك يتـــسق مع النسق القرآني دون تكلف أو اعتساف،ويمثـــل ذلـــك الجانـــب التطبيقي العملي للمشروع.

* * *

رابعاً
المنهجية

أما المنهجية لهذا المشروع، فيمكن أن تأخذ صورتين:

أولاً– على مستوى الجرد السوري:

ويكون تناوله، في النقاط الآتية:

١– إعطاء فكرة مبسطة عن السورة، تتناول زمانها ومكانها، وفضلها، والمحاور الأساسية التي تدور حولها.

٢– بيان الترابط بين السنن الواردة في السورة الكريمة ومحاورها الأساسية.

٣– بيان العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية في السورة، أو بيان العلاقة بين المسطور والمنظور.

٤– الحديث عن المنهجيات التطبيقية لهذه السنن حتى ننتقل من طور التوصيف إلى طور التوظيف،ومن مرحلة الفهم إلى مرحلة التسخير، ومن مجال الوعي إلى مجال السعي، ومن ميدان الكلام إلى ميدان العمل، والعمل المنتج الباني على أسس ومفاهيم قرآنية.

ثانياً– مرحلة الجرد الموضوعي للسنن:

ويتم ذلك أيضا في نقاط:

١- حصر الآيات التي تتناول كل سنة على حدة.

٢- فرز هذه الآيات إلى آيات ناصة على السنة صراحة أو ضمنا، وآيات ساندة لهذه السنة، ومبينة لها أو كاشفة لتطبيقاتها في عالم الأحياء أمما،وشعوبا، ومجتمعات، وأفرادا، أو سننا قدرية لم تنزل بعد في عالم الحياة والأحياء.

٣- تناول كل سنة على حدة بالمعالجة والبيان.

٤- بيان الجوانب التطبيقية لكل سنة على حدة.

٥- بيان واجب المسلمين منها وما يجب عليهم تجاهها، حتى ننتقل من جانب التوصيف إلى جانب التوظيف.

* * *

خامساً
مصادر التفسير السنني

أما مصادر التفسير السنني للقرآن الكريم، فتقوم أساساً على جرد وتتبع القرآن الكريم سورة، سورة، وآية، آية بغية الوصول إلى رؤية القرآن الكريم للسنن وعرضه لها، وإبراز هذه السنن جلية بينة لا لبس فيها ولا غموض.

كما تقوم على الإفادة من كتب التفسير السابقة على تنوع روافدها ومصادرها، وعلى تباين مشاربها واتجاهاتها، زمانا ومكانا ومناهج واتجاهات، والبحث بالمناقيش على ما لمسه العلماء السابقون من قضايا السنن تأصيلا وتنظيرا، وتطبيقا وتفعيلا، خاصة المدارس الإصلاحية والحركية، والاجتماعية التي أولت هذا الجانب عناية واضحة، كتفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار للسيد رشيد رضا (١٣٥٤هـ)، وتفسير في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب (١٣٨٧/١٣٢٤هـ، ١٩٦٧/١٩٠٦م).

كما يمكن الإفادة من كتب علم الاجتماع وفلسفته قديماً وحديثاً، ومن أهمها وفي صدرها: كتابات ابن خلدون (٨٠٨/٧٣٢هـ، ١٤٠٦/١٣٣٢م).

كما يمكن أن يُفاد من كتب التاريخ وفلسفته وفقهه وما يُعنى منه بجانب الاستشراف والمستقبليات بصفة خاصة.

أيضا من مصادر التفسير السنني التي لا يستغنى عناهـــا كتابـــات الأعلام الذين عنوا بالحديث عن السنن تأصيلا أو تطبيقاً، مثل مالك بن نبي (١٣٢٣/١٣٩٣هـ، ١٩٠٥/١٩٧٣م) وجـــودت ســـعيد، والطيب برغوث، وماجد عرسان، والكتابات المفردة عن علم السنن.

* * *

سادساً
نموذج للجرد السنني على مستوى السورة

اخترت نموذجا للجرد على مستوى السورة: ســـورة الأنفـــال؛ لغناها بالسنن ووضوح التطبيق فيها، وأنها تمثل مرحلة من مراحـــل المجتمع المسلم نحن في حاجة ماسة في ظروفنا الراهنة لتناوله والوقوف أمامه، وإلا فكل سور القرآن الكريم غنية ثرية، معطـــاءة نديـــة، في فيضها ومعالجتها للواقع الذي نـــزلت فيه.

ويمضي الحديث عن السورة الكريمة في نقاط تعين على استيعاب السنن الواردة فيها، وتمهد للإفادة منها وتوظيفها بعـــد توصـــيفها، والسعي بها بعد الوعي لها، ويمكن حصر هذه النقاط في:

١- بين يدي السورة الكريمة.

٢- محاور السورة والعلاقة بينها وبين السنن الواردة فيها.

٣- العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية في السورة الكريمة.

٤- مسرد السنن الربانية في السورة الكريمة، مشفوعة بآياتها.

أولاً- بين يدي السورة:

سورة الأنفال من السور المدنية التي عنيت بما يعنى بـــه القـــرآن النازل في المدينة على رسول الله ﷺ.

وهي السورة السابعة في ترتيب المصحف الشريف، وهي مدنية كلها كما روي عن الحسن وعكرمة، وجابر بن زيد وعطاء، وعبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت، وقال ابن عباس: نزلت في بدر، وفي لفظ: (تلك سورة بدر)، وقيل: إنها مدنية إلا الآية ٦٤، وهي (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**).

وأخرج ابن جرير الطبري: (عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة بن الصامت عن "الأنفال"، فقال: فينا معشرَ أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا في النَّفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ﷺ، وقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بَوَاء[1]، يقول: على السواء فكان في ذلك تقوى الله، وطاعة رسوله ﷺ، وصلاحُ ذاتِ البين[2].

وقال آخرون: بل إنما أنزلت هذه الآية؛ لأن بعض أصحاب رسول الله ﷺ سأله من المغنم شيئًا قبل قسمتها، فلم يعطه إياه، إذ كان شِرْكًا بين الجيش، فجعل الله جميعَ ذلك لرسول الله ﷺ)[3].

١- والبَواء السَّواء وفُلانٌ بَواءُ فُلان أَي كُفْؤُهُ ، انظر: لسان العرب (١/ ٣٦)، وهم أكفاء سواء، ودماؤهم بواء. وباءً فلان بفلان: صار كفؤً له. وأبأت فلاناً بفلان: قتلته به. انظر: أساس البلاغة (١/ ٣٥)، وانظر الصحاح في اللغة:١/ ٥٧.

٢- جامع البيان: ٣٦٩/١٣.

٣- جامع البيان: (٣٧٠،٣٧١).

زمان نـــزول السورة:

(نـــزلت سورة الأنفال... بعد سورة البقرة.. نـــزلت في غـــزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة بعد تسعة عشر شهرا من الهجرة على الأرجح.. ولكن القول بـــأن هـــذه الـــسورة نـــزلت بعد سورة البقرة لا يمثل حقيقة نهائية. فـــسورة البقـــرة لم تنـــزل دفعة واحدة بل إن منها ما نـــزل في أوائل العهد بالمدينـــة، ومنها ما نـــزل في أواخر هذا العهد. وبين هـــذه الأوائـــل وهـــذه الأواخر نحو تسع سنوات! ومن المؤكد أن سورة الأنفال نـــزلت بين هذين الموعدين وأن سورة البقرة قبلها وبعدها ظلت مفتوحة تنـــزل الآيات ذوات العدد منها بين هذين الموعدين وتضم إليها وفق الأمـــر النبوي التوقيفي. ولكن المعول عليه في قـــولهم: إن هـــذه الـــسورة نـــزلت بعد هذه السورة، هو نـــزول أوائل السور.

هذه السورة نـــزلت في غزوة بدر الكبرى.. وغـــزوة بـــدر – بملابساتها وبما ترتب عليها في تاريخ الحركة الإسلامية وفي التـــاريخ البشري جملة – تقوم معلما ضخما في طريق تلك الحركة وفي طريق هذا التاريخ)[1].

١- في ظلال القرآن : (٣/ ١٤٢٩).

المحاور العامة للسورة الكريمة وعلاقتها بالسنن الربانية:

تدور سورة الأنفال على عدد من المحاور الرئيسة، والمعالم الأساسية التي تلتقي في كثير منها مع السنن الربانية، ويمكن رصد ذلك في العناصر الآتية:

١- (السورة تنظم ارتباطات الجماعة المسلمة على أساس العقيدة... وبيان الأحكام التي تتعامل بها مع غيرها من الجماعات الأخرى في الحرب والسلم - إلى هذه الفترة التي نزلت فيها السورة - وأحكام الغنائم والمعاهدات وتضع خطوطا أصيلة في تنظيم تلك الروابط وهذه الأحكام)[1].

ويلتقي هذا المحور بطبيعته مع سنة من سنن الله تعالى في (كون ولاية الأعداء دون الأولياء من أعظم مثارات الفتن)[2] والتي رصدتها السورة الكريمة في قوله تعالى: (**وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** (٧٣).

٢- المحور الثاني من محاور السورة الكريمة محور الحديث عن الغنائم، والأنفال، والتي أخذت حيزا من السورة الكريمة، والتي سميت

١- في ظلال القرآن: (٣/ ١٤٦٣).
٢- المنار: ١٠/١٢٤.

السورة الكريمة باسمها، (لقد اختلفوا على الغنائم القليلة في الواقعة التي جعلها اللّه فرقانا في مجرى التاريخ البشري إلى يوم القيامة! ولقد أراد اللّه – سبحانه – أن يعلمهم، وأن يعلم البشر كلهم من بعدهم أمورا عظاما... أراد أن يعلمهم ابتداء أن أمر هذه الوقعة أكبر كثيرا من أمر الغنائم التي يختلفون عليها)[1]. فأخذت هذه القضية الأساسية من السورة قدرا وعناية واهتماما؛ لأن القصة التي تتكرر في كل زمان ومكان وفي كل جيل وقبيل: هي قصة الغنيمة والهزيمة؛ لذا عنيت بها السورة الكريمة عناية ملموسة، واضحة.

ويلتقي هذا المحور مع سنة الله تعالى في كون الأموال والأولاد فتنة، وهي السنة الواردة في الآية ٢٨ من السورة الكريمة.

٣- المحور الثالث من محاور السورة الكريمة هو الثبات والدعوة إلي الله تعالى؛ (ولأن المعركة –كل معركة يخوضها المؤمنون – من صنع اللّه وتدبيره. بقيادته وتوجيهه. بعونه ومدده، بفعله وقدره. له وفي سبيله. تتكرر الدعوة في السورة إلى الثبات فيها، والمضي معها، والاستعداد لها، والاطمئنان إلى تولي اللّه فيها، والحذر من المعوقات عنها من فتنة الأموال والأولاد، والاستمساك بآدابها،

١- في ظلال القرآن: ١٣/١٣٦٤.

وعدم الخروج لها بطرا ورئاء الناس. ويؤمر رسول اللّه ﷺ بتحريض المؤمنين عليها..)[1].

٤- المحور الرابع من محاور السورة الكريمة هو الحديث عن العقيدة، وتعميقها وربط كل شيء في الحياة بها، (وفي ذات الوقت الذي تتكرر الأوامر بالتثبيت في المعركة يتجه السياق إلى توضيح معالم العقيدة وتعميقها ورد كل أمر وكل حكم وكل توجيه إليها. فلا تبقى الأوامر معلقة في الفراغ، إنما ترتكز على ذلك الأصل الواضح الثابت العميق)[2].

٥- المحور الخامس محور الحديث عن الجهاد، (ويبرز في سياق السورة بصفة خاصة - إلى جانب خط العقيدة - خط آخر هو خط الجهاد، وبيان قيمته الإيمانية والحركية. وتجريده كذلك من كل شائبة شخصية وإعطاؤه مبرراته الذاتية العليا التي ينطلق بها المجاهدون في ثقة وطمأنينة واستعلاء إلى آخر الزمان.. والسورة بجملتها تتضمن هذا الإيحاء)[3].

ويلتقي هذا المحور مع سنة الله تعالى في قتال المؤمنين للكافرين،

١- في ظلال القرآن: ١٣٦٥/١٣.
٢- في ظلال القرآن: ١٣٦٥/١٣.
٣- في ظلال القرآن: ١٣٦٦/١٣.

وهي السنة الواردة في الآية:٦٥، ٦٦.

٦- كما تحدثت السورة الكريمة عن نداءات الله تعالى للمؤمنين ودعوتهم للاستجابة لله والرسول، وعدم خيانتهم له، وأنهم إن يتقوا الله يجعل لهم فرقانا ويكفر عنهم سيئاتهم ويغفر لهم.

ويلتقي هذا المحور مع سنة الله تعالى مع من يتقيه، وأنه يجعل له بهذا فرقانا، يفرق به بين الحق والباطل، وهي السنة الواردة في الآية:٢٩.

٧- كما تناولت الحديث عن الأسرى واختلاف الصحابة فيهم، ورحمة الله برسوله والمؤمنين في اجتهادهم.

ويلتقي هذا المحور مع سنة الله تعالى في الأسرى، وهي السنة الواردة في الآية: ٦٧، ٧٠.

٨- كما تناولت حديثا عن الولاء والوحدة وأثرهما في النصر وتحقيق سنن الله تعالى في ذلك.

وهو يلتقي مع سنة الله تعالى في التوازن المجتمعي، والتي عبرت عنه الآية:٧٣ من السورة الكريمة.

٩- كما تضمنت الكثير من دستور السلم والحرب، والغنائم والأسرى، والمعاهدات والمواثيق،وعوامل النصر وعوامل الهزيمة. كلها مصوغة في أسلوب التوجيه المربي، الذي ينشئ التصور

الاعتقادي، ويجعله هو المحرك الأول والأكبر في النشاط الإنساني.. وهذه هي سمة المنهج القرآني في عرض الأحداث وتوجيهها.

ويلتقي هذا مع سنن الله في قتال المؤمنين للكافرين في الآيات ٦٥، ٦٦، وسنن الله في الأسرى، في الآية ٦٧، ٧٠، وسنن الله في النصر والهزيمة، في الآيات: ١٠، ٢٦، ٦٢.

١٠- ثم إنها تضمنت مشاهد من الموقعة، ومشاهد من حركات النفوس قبل المعركة وفي ثناياها وبعدها.. مشاهد حية تعيد إلى المشاعر وقع المعركة وصورها وسماتها كأن قارئ القرآن يراها فيتجاوب معها تجاوبا عميقا.

١١- واستطرد السياق أحيانا إلى صور من حياة الرسول ﷺ وحياة أصحابه في مكة، وهم قلة مستضعفون في الأرض، يخافون أن يتخطفهم الناس. ذلك ليذكروا فضل اللّه عليهم في ساعة النصر، ويعلموا أنهم إنما سينصرون بنصر اللّه، وبهذا الدين الذي آثروه على المال والحياة. وإلى صور من حياة المشركين قبل هجرة رسول اللّه ﷺ وبعدها. وإلى أمثلة من مصائر الكافرين من قبل كدأب آل فرعون والذين من قبلهم، لتقرير سنة اللّه التي لا تتخلف في الانتصار لأوليائه والتدمير على

أعدائه)[1].

ويلتقي هذا مع سنة الله تعالى في كونه مع المؤمنين، وهي السنة الواردة في الآية ١٩.

ثانياً- العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية في السورة الكريمة:

وكما حفلت سورة الأنفال بعدد من السنن الربانية، حفلت كذلك بعدد من السنن الكونية، التي تتلاقى معها وتمضي في سَبْحها، فالمسطور والمنظور كلاهما من صنع الله رب العالمين، (فلله في خلقه كتابا مسطور وهو القرآن، ومنظور وهو الكون، فالكون قرآن منظور، والقرآن كون مسطور، والقرآن كلام الخبير، والكون صنع الخبير، ولا يخالف كلام الخبير صنعه)[2]، ومن هذه السنن الواردة في السورة الكريمة ما يأتي:

١- إمداد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، وهي الواردة في الآية ٩ من السورة الكريمة.

وهناك ارتباط واضح بين هذه السنة وسنة الله تعالى في النصر كما

١- في ظلال القرآن: ١٣/١٤٧٠.

٢- نظم اللآلي من حكم الغزالي، د. رمضان خميس: ص ٥٩، ط: دار الحرم للتراث.

صورته الآية التالية لهذه السنة وهي الآية ١٠ من السورة الكريمة.

٢- جعل الله النعاس أمنة منه للمجاهدين، وهي السنة الواردة في الآية ١١ من السورة الكريمة، وهي مرتبطة أيضا بسنة الله تعالى في النصر، وسنة الله تعالى في كونه مع المؤمنين، وسنته تعالى في كونه مع الصابرين، وسنته تعالى في كونه مع من يتقيه، وسنته في المتوكلين عليه، وسنته في قتال المؤمنين للكافرين.

٣- إنزال الله من السماء ماء ليطهر به المجاهدين، ويلتقي هذا مع سنة الله تعالى في النصر،وسنته في قتال المؤمنين للكافرين، وسنته في التمييز بين الخبيث والطيب، وسنت في إيهان كيد الكافرين، وسنته في المكر والماكرين.

٤- وحي الله للملائكة أن يثبتوا المؤمنين المجاهدين، ويلتقي هذا أيضا مع أكثر السنن الواردة في النصر، وكون الله مع المؤمنين، والمتوكلين، والمجاهين، وعدم حبه للخائنين، وسنته مع من يتقيه.

٥- قتل الله الكافرين قبل قتل المؤمنين لهم، ورميه قبل رمي المؤمنين، وهذا يلتقي مع سنته تعالى في النصر، وقتال المؤمنين للكافرين ومعية الله للمؤمنين، والصابرين، والمتوكلين.

٦- جعل الله رسوله ﷺ يرى الكافرين في منامه قليلا، وعلاقة ذلك بسنته في النصر وما يتعلق بها من سنن.

٧- جعل الله المؤمنين يرون الكافرين في أعينهم قليلا، وجعل الكافرين يرون المؤمنين في أعينهم قليلاً، وعلاقة ذلك بسنته في النصر وما حولها من سنن.

ومن هنا يبدو مدى الترابط السنني بين سنن الله في الكون وسننه في الحياة والأحياء، فيتلاقى المسطور مع المنظور؛ لأن الكل من لدن الحكيم الخبير،وصدق الله القائل في نهاية تلك السورة الكريمة: (**إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**).

ثالثاً– السنن الربانية الواردة في سورة الأنفال:

يمكن جرد السنن الربانية في سورة الأنفال، مشفوعة بآياتها على النحو الآتي:

السنة الأولى: سنة الله في النصر وأنه لا يكون إلا من عند الله،وشملتها الآيات: (**وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (١٠))، وقوله تعالى: (**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآَوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٢٦)، وقوله تعالى: (**وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ** (٦٢)).

السنة الثانية: سنة الله في إيهان كيد الكافرين في قوله تعالى:

(**ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ** (١٨)).

السنة الثالثة: سنة الله في كونه مع المؤمنين، في قوله تعـالى: (**إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** (١٩)).

السنة الرابعة: سنة الله في الفتن والابتلاء، في قوله تعالى: (**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَـدِيدُ الْعِقَابِ** (٢٥)).

السنة الخامسة: سنة الله في كون الأموال والأولاد فتنة، وذلـك في قوله تعالى: (**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** (٢٨).

السنة السادسة: سنة الله في المتقين، في قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (٢٩)).

السنة السابعة: سنة الله في المكر والماكرين، في قول تعالى: (**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** (٣٠)).

السنة الثامنة: سنة الله في أقوام المرسلين، في قوله تعـالى: (**وَإِذَا**

تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَـــذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٣١))، وقوله تعالى: (**وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّـــهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** (٣٤)).

السنة التاسعة: سنة الله في الكثرة من الناس، في قوله تعالى: (**وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَـــانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** (٣٤)).

السنة العاشرة: سنة الله في كون ما ينفقه الكافرون ليصدوا عـــن سبيل الله يكون عليهم حسرة، في قوله تعالى: (**إِنَّ الَّـــذِينَ كَفَـــرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** (٣٦)).

السنة الحادية عشرة: سنة الله في الكافرين، في قوله تعالى: (**قُـــلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُـــودُوا فَقَـــدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ** (٣٨))، وقوله تعـــالى: (**كَـــدَأْبِ آلِ فِرْعَـــوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ** (٥٢))، وقوله تعالى: (**كَـــدَأْبِ آلِ فِرْعَـــوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَـــا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ** (٥٤))، وقوله تعالى: (**وَلا يَحْسَبَنَّ**

الَّذينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجزُونَ (٥٩))، وقوله تعالى: (**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمنينَ عَلَى الْقتَالِ إِنْ يَكُنْ منْكُمْ عشْرُونَ صَابرُونَ يَغْلبُوا مائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ منْكُمْ مئَةٌ يَغْلبُوا أَلْفًا منَ الَّذينَ كَفرُوا بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** (٦٥)).

السنة الثانية عشرة: سنة الله في الصابرين، في قوله تعالى: (**وَأَطيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابرينَ** (٤٦))، وقوله تعالى: (**الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلمَ أَنَّ فيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ منْكُمْ مئَةٌ صَابرَةٌ يَغْلبُوا مائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ منْكُمْ أَلْفٌ يَغْلبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابرينَ** (٦٦)).

السنة الثالثة عشرة: سنة الله في المتوكلين عليه، في قوله تعالى: (**إِذْ يَقُولُ الْمُنَافقُونَ وَالَّذينَ في قُلُوبهمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكيمٌ** (٤٩)).

السنة الرابعة عشرة: سنة الله في التغيير، في قوله تعالى: (**ذَلكَ بأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بأَنْفُسهمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَميعٌ عَليمٌ** (٥٣)).

السنة الخامسة عشرة: سنة الله في الخائنين، في قوله تعالى: (**وَإِمَّا تَخَافَنَّ منْ قَوْمٍ خيَانَةً فَانْبذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ الْخَائنينَ** (٥٨)).

السنة السادسة عشرة: سنة الله في الأسرى، في قوله تعالى: (**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآَخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٦٧))، وقوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** (٧٠)).

السنة السابعة عشرة: سنة الله في ولاية الأعداء دون الأولياء، في قوله تعالى: (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** (٧٣)).

السنة الثامنة عشرة: سنة الله في الإنفاق في سبيل الله، في قوله تعالى: (**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ** (٦٠)).

السنة التاسعة عشرة: سنة الله في قتال المؤمنين للكافرين، في قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** (٦٥) **الآَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ**

وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)).

السنة العشرون: سنة الله في تفاوت البشر في الاستعداد للإيمان والكفر والخير والشر: في قوله تعالى: (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)**).

السنة الحادية والعشرون: سنة الله في الظالمين، في قوله تعالى:

(**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢٥)**).

وقوله تعالى: (**كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢)**)، وقوله تعالى: (**كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)**).

السنة الثانية والعشرون: سنة الله في المتقين، في قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (٢٩)).

السنة الثالثة والعشرون: سنة الله في قرار الملك وثباته، في قوله تعالى: (**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٦٧) **لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (٦٨) **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** (٦٩)).

السنة الرابعة والعشرون: سنة الله في التمييز بين الخبيث والطيب،في قوله تعالى: (**لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** (٣٧)).

السنة الخامسة والعشرون: سنة الله في حرية الإنسان وقدرته وإرادته في اختيار أفعاله، في قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** (٢٤)).

* * *

سابعاً
نموذج للجرد السنني على مستوى الموضوع

أما الجرد السنني على مستوى الموضوع، فيمكن أن يكون عن طريق حصر آيات السنة الكريمة في مكان واحد كما يصنع في التفسير الموضوعي على مستوى الفكرة، أو القضية، أو الموضوع، ويتناول في الخطوات الآتية:

١- جرد الآيات التي تتناول موضوع السنة على طول القرآن الكريم وعرضه.

٢- تصنيف هذه الآيات تصنيفا تسلسلياً، يعين على رسم صورة واضحة المعالم بيِّنة الملامح، واضحة القسمات، للسنة المختارة، مراعين في ذلك الترتيب الزمني متى ما ترتب عليه بناء فكرة بينة، أو رؤية واضحة، أو حكم كلي يفصح عنه النسق القرآني.

٣- اختيار عنوان شامل لهذه السنة، يكون منتزعا من صميم الآيات الرئيسة في الموضوع، حتى يكون متسقا مع منهجية التفسير الموضوعي[١].

١- انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، لأستاذنا د عبد الستار فتح الله سعيد، ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط الثانية،١٤١١هـ،١٩٩١م، ص ٥٩،٦٠.

٤- بيان وجه السننية أو التلازم في أطواء هذه القضية المختارة، وإبراز الخط السنني التراتبي فيها، بما يفرق بينها وبين القاعدة القرآنية، والمبدأ القرآني العام أو الخاص، فلكل وجهة هو موليها، ولابد لمن يعالج أمر السنن أن يقصد إلى السنن قصداً، وحيثما كان يولي وجهه شطرها.

وعلى هذا الأساس أختار سنة من السنن التي يمكن حصرها، ومعالجتها في هذه المساحة والغرض منها النمذجة والتمثيل؛ وتأثراً بما تعيشه بلادنا العربية من تنازع بين أهل الحق وأهل الباطل، برز فيه الصراع بين رجال المال ودعاة الإصلاح بروزاً يزيد السنة ثباتاً واطراداً، ووضوحاً وجلاء لكل ذي عينين، ويجعل المنظور يطابق المسطور، والسطور يتناسق مع المنظور، دون تحيف أو انتقاص، فأقول:

* * *

سنة الله في تنازع رجال المال ودعاة الإصلاح في ضوء القرآن الكريم

نقصد برجال المال هنا الذين يجعلون المال هدفهم الأساس، وغايتهم الرئيسة، دون التفات إلى حلال وحرام، وفضيلة ورزيلة، وحق وباطل، وإلا فليس خافياً أن المال عصب الحياة، وأن المال الصالح للرجل الصالح نعمة من نعم الله (تعالى) عليه وعلى أمته، وأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله (تعالى) من المؤمن الضعيف، ومن مجالات القوة: القوة المالية، التي يخدم الفرد بها أمته وغايته ورسالته.

وقد مضت سنة الله (تعالى) بتنازع رجال المال ودعاة الإصلاح، على تطاول الأعصار وتباعد الأمصار؛ ذلك أن رجال المال تقوم مصالحهم على عدم الضبط المالي، وتحري المباح والحلال، ويعتمدون في كثير من كسبهم على عدم القيود فالحلال لديهم ما حل في اليد، والحرام ما حرموا منه.

تناول هذه السنة من سنن الله تعالى في الحياة والأحياء عدد من الآيات الكريمة، ويجمع أطرافها، ويحدد سننيتها ما ورد في قصتين في مواطن متفرقة من القرآن الكريم: قصة قوم شعيب، الذين ينقصون الميزان والمكيال، ويبخسون الناس أشياءهم رغبة في الاستحواذ على

المال، وقصة قارون وموقفه من قومه، ويلاحظ على هذه الآيات التي تناولت تلك السنة القرآنية، والواقعية، أنها كلها مكية، فقد وردت في سور: الأعراف، هود، الشعراء، القصص، العنكبوت، غافر، ويلمح إلى تلك السنة في قصة شعيب صاحب المنار، فيرى أن (في قصة شعيب مع قومه مسألة من أهم مسائل الاجتماع في العالم المدني، وهي التنازع بين رجال المال ورجال الإصلاح في حرية الكسب المطلقة، وتقييد الكسب بالحلال ومراعاة الفضيلة فيه، فقوم شعيب كانوا يستبيحون تنمية الثروة بجميع الطرق الممكنة حتى التطفيف في المكيال والميزان، فإذا كالوا أو وزنوا للناس نقصوا وأخسروا، وإذا اكتالوا عليهم لأنفسهم استوفوا وأكثروا، وكانوا يبخسون الناس أشياءهم في كل أنواعها، وكان شعيب – عليه السلام – ينهاهم عن ذلك ويوصيهم بالقسط فيه، واجتناب أكل أموال الناس بالباطل والقناعة بالحلال، وكانت حجتهم: حرية الكسب مقرونة بحرية الاعتقاد،كما حكاه الله عنهم بقوله: – (**قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء**) (هود: ٨٧)......... وهو هنا شاهد على كون هذا التنازع بين أهل الحق والفضيلة، وبين أهل الباطل والرذيلة، من سنن الاجتماع المعروفة، والأنبياء ينصرون الحق والفضيلة بالوعظ والإرشاد المؤيدين

بالحجة ووسائل الإقناع، لا بالقوة ووسائل الإكراه، ومن كان له منهم شريعة مدنية كموسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - كانت جامعة للوازعَين: وازعِ النفس بمقتضى الإيمان، ووازع الشرع يمنع الاعتداء على حقوق الناس، وما زال التنازع المالي أعقد مشاكل الاجتماع)[1].

ويمكن أن نتبين تلك السنة من خلال العناصر الآتية:

١- صفات رجال المال كما تصورها الآيات الكريمة.

٢- موقفهم من المرسلين والدعاة والمصلحين.

٣- سنة الله (تعالى) فيهم

٤- ملامح السننية في تلك القضية.

٥- العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية في ضوء تلك السنة.

ولنعالج تلك النقاط على ترتيبها السابق حتى تضح ملامحها، وتبين معالمها فنقول:

صفات رجال المال كما تصورها الآيات الكريمة:

بان من تتبع الآيات الكريمة الراصدة لتلك السنة أن رجال المـــال الذين يجعلونه نصب أعينهم، وغاية أملهم ويعدونه غاية لا وســـيلة، وهدفاً لا أداة لإسعاد العباد وعمران البلاد، أنهم يتصفون بـــصفات

١- تفسير المنار (١٢/ ٢٠٠)، بتصرف يسير.

لازمة، تتعدى الأعصار والأمصار، وتبقى رغم اختلاف الزمان والمكان، ومن هذه الصفات:

١- الإفساد في الأرض:

فهم من أجل غرضهم يخربون البلاد، ويجيعون العباد، ويقلبون وظيفة المال في الحياة، وهذا ما نهاهم عنه الأنبياء والمرسلون والدعاة والمصلحون، فقد قال لهم شعيب عليه السلام: (**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)، (الأعراف من الآية: ٨٥).

كما حذرهم من الإفساد بقوله: (**انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**)، (الأعراف، من الآية: ٨٦).

كما قال لهم في موطن آخر ذكرته سورة هود: (**وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ** (٨٥) **بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** (٨٦)).

وأغراهم بما عند الله، وأنه خير لهم وأحظ، وأبقى لهم وانفع، قال ابن عباس: رزق الله خَيْر لكم.

وقال الحسن: رزق الله خير لكم من بخسكم الناس. (وقال الربيع ابن أنس: وصية الله خير لكم.

وقال مجاهد: طاعة الله خير لكم. وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم)[1].

وقارون، وهو صورة أخرى من صور العتو المالي، والإفساد الذي يغري العباد ويقض عليهم استقرارهم النفسي والمالي، وطمأنينتهم، ويعكر عليهم رضاهم بقَسم الله فيهم، ينصحه قومه: (**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآَخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**)، (القصص: ٧٧).

والعجيب أنهم يتهمون غيرهم بالفساد والإفساد، كأنها عقدة نفسية بل هي كذلك يريدون أن يتخلصوا منها ويرمون غيرهم بها، فعندما يجتمع قارون وهامان وفرعون، رموز الفساد الثلاثي، المالي والإداري والحُكْمي، يقولون على لسان واحد منهم ما سجله القرآن، سنة ثابتة لا تتبدل ولا تتخلف، ولا تتغير ولا تتحول: (**ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ**)، (غافر:٢٦).

٢- بخسهم الناس أشياءهم:

وهؤلاء الماليون سمة لازمة من لوازمهم سجلها عليهم القرآن

١- تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٤٣).

الكريم، أنهم يبخسون الناس أشـــياءهم،؛ لأن مقاييـــسهم معتلـــة، وموازينهم مختلة، ونظرتهم إلى قيم الأشياء والأشخاص غير طبيعيـــة، فقال تعالى- ناعيا على قوم شعيب تلك الصفة وناهيا لهـــم عنـــها: (**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـــهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَـــأَوْفُوا الْكَيْـــلَ وَالْمِيـــزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْـــدَ إِصْـــلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)، (الأعراف: ٨٥).

وقال في موطن آخر ناهيا لهم عن نقص المكيال والميزان، وعـــدم بخس الناس أشياءهم، ومبينا لهم أن ما عند الله خير وأبقى: (**وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ** (٨٥) **بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْـــرٌ لَكُـــمْ إِنْ كُنْـــتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ**)، (هود:٨٥، ٨٦).

وانطلاقاً من نظرتهم هم إلى المال أنكروا على شعيب قوله، وعدوا ذلك الذي يدعوهم إلى فعله غير مقبول: (**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَـــلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** (٨٧)).

٣- يبغونها عوجاً:

وهؤلاء لا يريدون الإصـــلاح، ولا يرغبـــون في الـــصلاح، ولا

يريدون أن يكون الناس على بينة من دينهم، بل يسعون في أن تكون الطريقة التي يحيا الناس بها عوجا غير مستقيمة؛ لأنهم لا يعيشون إلا في مثل هذه الأجواء، وتلك المناخات التي تتيح لهم العثو[1] في الأرض فساداً، ولذلك نهاهم شعيب عنها؛ لعلمه بطرائقهم، ومعرفته بسماتهم: (**وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**) (الأعراف: ٨٦).

وهذا مبالغة في رغبتهم في كون سبيل الناس على غير هدى، فهم لا يريدون أن يضلوا الناس فقط، بل يبغون أن تكون السبيل التي يطلبها الناس هي نفسها عوجا، "والهاء والألف" اللتان في قوله: "تبغونها" عائدتان على "السبيل"، وأنثها لتأنيث "السبيل")[2].

٤- ميزانهم للأشياء والأشخاص:

وهؤلاء الماليون يرون كل ما حولهم موزونا بميزان واحد، هو (كم)، لا (كيف)، ولا (مَن)، فكل ما حولهم من الأشياء والأشخاص له سعر وثمن، ولعل تعاملهم مع البضائع والأثمان،

١- عَثَا كَرَمَى وسَعَى ورَضِيَ عُثِيًّا وعِثِيًّا وعَثَياناً وعَثَا يَعْثُو عُثُوًّا : أفْسَدَ، القاموس المحيط: ١٦٨٨ ، وانظر: المعجم الوسيط (٢/ ٥٨٤).
٢- جامع البيان: (٦/ ٥٣).

أورثتهم تلك الصفة، فالمهنة تؤثر في الممتهن كما يقول علماء الاجتماع.

ولقد رصد القرآن الكريم نظرة هؤلاء تلك، وعابها عليهم فقال:(**وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ**) (الأعراف: ٩٠).

ورد القرآن فهمهم لقيم الأشخاص وحكمهم عليهم بالخسران بأنهم هم أهل الخسار والبوار، وأهل النقص والانكسار بقوله: (**الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ**)، (الأعراف: ٩٢).

وهؤلاء لأن عزهم في المال وحده، وشرفهم في جاهه وسطوته، وهمتهم لا تشبع إلا به، فهم يعدونه كل أملهم يقوي ضعفهم، ويرفع خسيستهم، ويعدون ما عداه صغيرا وإن كبر، ويرونه قليلاً وإن كثر، حقيرا وإن عظم، تلك نظرتهم للحياة والأحياء، وذلك تقييمهم للأشخاص والأشياء، ولقد رصدت آيات القرآن الكريم تلك الصفة لديهم، فقال تعالى: (**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**)، (هود: ٨٧).

٥- الاستكبار في الأرض والاعتداد الكاذب:

وهم مستكبرون على الخلق؛ محتقرون للعباد؛ لأنهم في نظر

أنفسهم يملكون ما لا يملك غيرهم، ولديهم ما ليس لدى من سواهم؛ ظنا منهم أن قيمة الإنسان بما يملك، ولقد صور القرآن الكريم نظرتهم تلك واستكبارهم هذا بقوله: **(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ)**، (الأعراف: ٨٨).

وقال عن قارون وفرعون وهامان ثلاثي الطغيان، المترابط المبني على المصلحة، والنفعية المتبادلة: **(وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)** (العنكبوت: ٣٩).

كما أبان القرآن أن قارون تجاوز على قومه وتعدى عليهم فقال تعالى: **(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** (٧٦).

كما حكم القرآن بأن الآخرة لا تكون للمستكبرين المتعالين، المفسدين، في صورة سننية حُكْمية قاطعة، لا تتبدل ولا تتغير، وفي قالب قاعدي ناموسي ثابت، بقوله: **(تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)**، (القصص: ٨٣).

وتلك طريقة القرآن الكريم ومنهاجه في التعقيب على القـــصص التي يسوقها والقضايا التي يطرحها، يعقب عليها بصورة قاعدية سننية ثابتة، والمتتبع للقصص القرآني يدرك ذلك تماما، ومن هنا فالقـــصص القرآني من أخصب مظان السنن الربانية، وأغزر مواردها.

موقف رجال المال من دعاة الإصلاح:

لرجال المال موقف من دعاة الإصلاح، على مدار الأزمان ومـــر الأجيال، تزيده الأيام رسوخا ووضوحا، وتؤيده وقائع الحياة بيانـــا وظهورا، وتلك سمة من سمات الـــسنن الربانيـــة، وخصيـــصة مـــن خصائصها، أنها لا تتبدل ولا تتحول ولا تتغير ولا تتوقف، ومن أبرز مواقفهم مع دعاة الإصلاح ما يأتي:

١- الرغبة في إخراجهم من بلادهم أو إعادتهم إلى ملتهم:

وهذا ما بينته الآيات في قوله (تعالى) في قصة قوم شعيب: (**قَـــالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَـــوْ كُنَّـــا كَـــارِهِينَ**)، (الأعراف: ٨٨).

والمتتبع لقصص المرسلين كما يصوغه القرآن الكريم يجـــد هـــذا الموقف لازما لهؤلاء، وإخراجهم لرسول الله ﷺ والصحب الكـــرام غير خاف، وكذلك رجال المال في كل زمان ومكان.

٢- الصد عن دعوهم:

والمتتبع لآيات القرآن الراصدة لسنة الله في تنازع رجال المال ودعاة الإصلاح يجد أنهم يسعون حثيثا للصد عن دعوهم، والوقوف أمام رسالتهم.

وعن ابن عباس، في قوله: (**وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ**)، قال: كانوا يجلسون في الطريق، فيخبرون مَنْ أتى عليهم: أن شعيبًا عليه السلام كذاب، فلا يفتنكم عن دينكم[1].

وهذا عينه ما يتكرر في كل زمان ومكان، وقد قال شعيب لقومه مبينا صفتهم هذه وموقفهم من دعوته بقوله:(**وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**)، (الأعراف: ٨٦).

وصدهم عن سبيل الله (ويحتمل وجهين:

أحدهما: تصدون المؤمنين عن طاعة الله وعبادته.

والثاني: تصدون من أراد الإيمان بإغوائه ومخادعته)[2].

١- جامع البيان: (١٢/ ٥٥٧).

٢- النكت والعيون: (٢/ ٢٣٩)، وانظر زهرة التفاسير: ١/ ٢٨٩٧.

وليس غائبا عن أذهاننا ما كان يفعله أهل مكة الخائفون على أموالهم وسلطاهم من تلقي القادمين إلى مكة وتحذيرهم من دعوة الإسلام ورسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم).

٣- السخرية بالدعاة والمصلحين:

ومن مواقف رجال المال البينة مع المصلحين، أهم يسخرون منهم، ويهزؤون بهم، **(قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)**، (هود: ٩١).

ألم يصفوا المرسلين بالسحر والجنون؟! ويصفوهم بأهم إن تركوهم يظهروا في الأرض الفساد، ويصفوا الدعاة في عصورنا المعيشة بالرجعية مرة، والتخلف مرة، والجمود الثالثة الأخرى؟! فهو موقف ثابت لا يتغير، لأن منطلقهم في هذه المواقف والصفات ثابت أيضا لا يتغير،وعزاء المصلحين والدعاة أن تلك سنة من سنن الله (تعالى)، وأن عاقبتهم معلومة معروفة، ثابتة في القديم والحديث.

٤- همتهم للمرسلين:

وهؤلاء على مدار الزمن يتهمون الأنبياء والمرسلين، والدعاة والمصلحين، ويسعون في إلصاق التهم بهم على الرغم من يقينهم بصدقهم وكذب أنفسهم، فيتهموهم مرة بالسحر،ومرة بالشعر ومرة

بالكهانة، ومرة بأنهم يريدون قلب نظام الحكم، وأنهم يريدون أن يرجعوا بالأمة إلى الوراء، ويعيدوها إلى عصر الإبل الخيل والبغال والحمير، وقد سجل القرآن شيئاً من مواقفهم مع المرسلين فقال: **﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾**، (الشعراء:١٨٤، ١٨٥).

٥- مغالاتهم في طلب الآيات:

العقل الواعي يطلب المعجزة ليؤمن، والآية والبرهان ليطمئن، والدليل البين ليقتنع، لكن هؤلاء يطلبون المعجزة لا رغبة في الإيمان،ولا حرصا على الاقتناع، بل رغبة في التعجيز، ومغالاة في الطلب، فعجيب أن تسمعهم يقولون: **﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾**، (الشعراء: (١٨٧).

والمقبول عقلاً أن يطلبوا شيئا معقولا يدلهم على الدعوى وصدقها، ويجلي أمام أعينهم القضية ببرهانها، فما جدوى أن يسقط الله عليهم السماء كسفا إن كان رسولهم من الصادقين؟!! وهل سيكونون في الأحياء عندما يبين لهم صدقه أم سيكونون في عداد الهالكين؟! إن قضية المغالاة في طلب البرهان دليل على عدم رغبتهم في التسليم والإيمان، ولا القبول والإذعان.

وهذه المواقف لا تقف عند عصر المرسلين، بل تتعدى إلى عصور

الدعاة والمصلحين، في كل زمان ومكان، والواقع المرئي خير دليل على تناغم المسطور والمنظور.

سنة الله فيهم:

وقد جرت سنة الله (تعالى) التي لا تتخلف ولا تتأجل بهلاك وذهاب دولة هؤلاء المنازعين الأنبياء والمرسلين والدعاة والمصلحين، والصادين عن سبيل الله، الساخرين من أنبيائه ودعاته، والمفسدين في الأرض،والباخسين الناسَ أشياءهم، والمستكبرين في الأرض، لهذه الصفات وتلك المواقف، ولا يظلم ربك أحدا.

وهذا ما حذر منه شعيب قومه، ووعظهم بأن عاقبة كفرهم ومنازعتهم في الباطل غير محمودة العواقب، ودعاهم إلى الاعتبار من أحوال السابقين، والاتعاظ بهلاك الغابرين، فقال لهم: (**وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**)، (الأعراف من الآية: ٨٦).

ولكن لم تنفعهم الموعظة ما دامت قلوبهم مغلفة، صادة عن سماع الحق والعمل به، (**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** (٩١) **الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ** (٩٢) **فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ** (٩٣)، (الأعراف: ٩١/٩٣).

وانطبقت عليهم سنة الله تعالى التي لا تتخلف ولا تتأجل، (**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** (٩٤) **كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ** (٩٥)، (هود: ٨٤/٩٥).

وبينت سورة الشعراء نوع العذاب الذي أخذهم، وأن ذلك سنة من سنن الله تعالى، وآية من آياته، فقال تعالى: (**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** (١٨٩) **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ** (١٩٠) **وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** (١٩١) (الشعراء: ١٨٩/ ١٩١).

وأما فرعون فكان عذابه خسفا، به وبداره، حتى يكون عبرة لمن نازع بسلطة ماله الأنبياء والمرسلين والدعاة والمصلحين؛ وليكون آية من آيات الله تعالى، ينظر إليها الناس فيعلموا أن مقاييس الآخرة غير مقاييس الدنيا فالمال يعطى لمن يحبه الله ومن لا يحبه، أما الآخرة فلا تعطى إلا من يحبه الله عز وجل، (**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ** (٨١) **وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** (٨٢)).

وكان ذلك حكم الله القاهر وسننه الماضية التي لا تحابي ولا تجامل، (**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**)، (العنكبوت: ٤٠).

ملامح السننية في تلك القضية:

ويبدو الترابط السنني في تلك القضية بينا واضحا يسلم بعضه إلى بعض جزاء مرتبا على العمل في صورة قاعدية ناموسية سننية لافتة، ويمكن أن نرصد ملامح تلك السننية في النقاط الآتية:

١- لفت أنظار المرسلين لهم إلى هذه السنة التي يكونون هم بفعلهم وقودها ومادتها، ووعظهم بأن يعتبروا بالسابقين في ذلك حتى لا ينطبق عليهم جزاؤهم، ولا تتكرر معهم عقاباتهم، وهذا ما قاله شعيب عليه السلام لقوم: (**وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**)، (الأعراف من الآية: ٨٦).

٢- ترتب الجزاء على العمل في هذه القضية، فالأول مقدمة والثاني نتيجة، وتلك خصيصة من خصائص السنن يترتب فيها الجزاء على العمل بصورة شرطية متلازمة.

٣- التكرار والاستمرار في صفاتهم ومواقفهم، ورأيهم وقناعاتهم على مر العصور والدهور، وعبر الزمان والمكان، فما يتصف به قوم شعيب يتصف به قارون، ويتصف به أهل مكة وتتكرر

مواقفهم مع الرسول ﷺ حذو القذة بالقذة، ويتكرر في عصورنا الحاضرة من صفات ومواقف.

٤- النص على السننية في القرآن الكريم نفسه: (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**)، (الشعراء:١٩٠).

٥- تعقيبات القرآن الكريم على القصص الذي تناول هذه السنة، شأن القرآن الكريم في تعقيباته على القضايا التي يطرحها، والقصص الذي يتناوله، لا يقف عند التوصيف، بل يسعى بالناس من التوصيف إلى التوظيف، ومن الوعي إلى السعي، ومن الإدراك إلى الحراك، ومن الفهم إلى التسخير، فيعقب على موقف قارون من موسى ودعوته، بعد أن مضت سنة الله (تعالى) في قارون فيقول: (.... **أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِه مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**)، (القصص: ٧٨).

ويقول: (**وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** (٨٢) **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** (٨٣)، (القصص: ٨٢/٨٣).

وفي سورة العنكبوت يعقب القرآن أيضا على قصة عاد وثمود، وقارون وهامان، فيقول: (**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ**

أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)، (العنكبوت: ٤١، ٤٢).

فتعقيبات القرآن بتلك الأصول الجامعة التي تنطبق على كل جيل وقبيل، وتمضي عبر الزمان والمكان توحي بالسننية في هذه القضية، فالألفاظ عامة مطلقة، والأحكام عامة شاملة، والتعريفات مستغرقة واعبة، من حيث التعبير بالألف واللام، (المجرمون، الكافرون)، والاسم الموصول (الذين اتخذوا، للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا).

٦- تشبيه اللاحق بالسابق في حلول العذاب:

وهذا مما ينبئ عن اتحاد الجزاء لاتحاد السبب والعمل، وهذه خصيصة من خصائص السنن الربانية، ومن ذلك قوله تعالى في التعقيب على قصة قارون: (....**أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**)، (القصص: ٧٨).

وكما عقب القرآن الكريم على قصة قوم شعيب فقال: (**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** (٩٤) **كَأَنْ**

لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)، (هود: ٩٥)، وفي قوله: (**وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ** (٨٩))، وفي التعقيب على قوم عاد وثمود وقارون وهامان بقوله: (**وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ**)، (العنكبوت: ٣٩).

العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية:

معلوم أن الكون قرآن منظور،والقرآن كون مسطور، فما يذكره القرآن يؤيده الكون والواقع، وآيات الله تتجدد ولا تتبدد وتستمر ولا تتوقف وتستقر، وهناك ترابط عجيب بين السنن الكونية والسن الربانية في تناغم واتساق، والراصد لتلك السنة يجد ترابطا بينها وبين الحديث عن خلق السماوات والأرض كما ذكر ذلك في سورة العنكبوت تعقيباً على مواقف الطغاة البغاة، عاد وثمود وهامان وقارون، فيقول تعالى: (**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** (٤٣) **خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ** (٤٤)، (العنكبوت: ٤٣/٤٤).

فالحديث هنا عن خلق السماوات والأرض بالحق، وأن هذه الأمثال لا يعقلها إلا العالمون، ولعل هناك علاقة بين ذكر السماوات والأرض هنا وذكر خلقهما بالحق، وبين سنة التنازع بين رجال المال

ودعاة الإصلاح، فكما أن السماوات والأرض قامتا على الحق وخلقتا بالحق، فكذلك جزاء رجال المال الصادين عن سبيل الله والمتنازعين مع المصلحين ينالون جزاءهم بالحق.

* * *

مسرد السنن الواردة في القرآن الكريم
حسب الترتيب السوري

١٤)، سورة الممتحنة (–) Error! Bookmark not
سورة الصفdefined. Error! Bookmark not
(١٤) سورة الجمعةdefined. Error! Bookmark
(٢، ٨)، سورة المنافقونnot defined. **Error!**
Bookmark not defined.(٨) سورة التغابن
Error! Bookmark not defined.(١، ٢، ٣،
٤، ٥، ٦، ٧، ١١، ١٤، ١٥) سورة الطلاق **Error!**
Bookmark not defined.(٤، ٨، ١١) سورة
التحريم **Error! Bookmark not defined.**(–
) سورة الملك **Error! Bookmark not**
defined.(١٨، ١٩) سورة القلم **Error!**
Bookmark not defined.(٤٤) سورة الحاقة
Error! Bookmark not defined.(٥، ٦، ٧،
٨، ٩،١٠) سورة المعارج **Error! Bookmark**
not defined.(١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢) سورة نوح
Error! Bookmark not defined.(١، ٢، ٣،
١٠، ١١، ١٢) سورة الجن **Error! Bookmark**
not defined.(١٦) سورة المزمل **Error!**

(–)**Error! Bookmark not defined.**
سورة المسد **Error! Bookmark not defined.**(٣، ٤، ٥) سورة الإخلاص (–) **Error! Bookmark not defined.**سورة الفلق **Error! Bookmark not defined.**(–) سورة الناس
(–)**Error! Bookmark not defined.**

* * *

الخاتمة، أسأل الله حسنها

وبعد، فهذه رحلة مع مشروع إن قدر له التمام، وأسأل الله لــه التمام ، سيكون خطوة من خطوات خدمة القرآن الكــريم، خدمــة تتناسب مع طبيعة عصرنا ومتطلباته، - حسب أملــي ورجــائي - نستطيع من خلالها أن نفيد من عطاءات القرآن الكــريم وهديــه في ظروفنا المعاصرة، وتلك الدورة الحضارية التي يشهدها عالمنا العــربي والإسلامي، والتي سيكون لها ما بعدها من أثر في العالم أجمع.

والدراسات القرآنية - وفي القلب منها علم السنن يجب أن يكون حاضرا، وله أثر بارز، ومهمة واضحة في تلك الــدورة الحــضارية الراهنة.

بان من خلال العرض مفهوم هذا المشروع، وأهدافه، والخطة التي يمضي عليها، والمنهجية التي يتبناها، وقد قدم نموذجا للجرد الــسنني على مستوى السورة، وآخر على مستوى الموضوع.

وإني لأطمع في أن يكتب الله تعالى لهذا المشروع البقاء والنمــاء، ويتوفر عليه مختصون يرقبون نموه ويصلحون خطأه ويضيفون لفكرته؛ حتى يكون على قدر خدمة القرآن الكريم

وأرجو أن يأخذ جانب السنن والوعي بها من عنايتنا ما يليق بــه

على مستوى التخصص وعلى مستوى الفكر والثقافة، حتى ننتقل به من طور العلم إلى طور العمل، والعمل المؤسس على رؤية مستقبلية استشرافية مستنيرة تقدم للعالم من جديد مثل ما قدم أسلافنا في عصورهم ما يتناسب معها قضية وعرضا.

والله وحده خير مسئول ومأمول

* * *

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- الإتقان في علوم القرآن، ط: بيروت لبنان١٩٧٣م، الإمام السيوطي.

٢- أساس البلاغة أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله.

٣- تفسير القرآن الحكيم، (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب،سنة النشر: ١٩٩٠م.

٤- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي[٧٠٠ -٧٧٤هـ]، المحقق: سامي بن محمد سلامة،الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٥- جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٦- زهرة التفاسير: الإمام الجليل محمد أبو زهرة، ط: دار الفكر

العربي.
٧- الصحاح في اللغة، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفرابي.
٨- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علـــم التفـــسير: محمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفى: ١٢٥٠هـــ)
٩- في ظلال القرآن،: سيد قطب إبراهيم - (رحمـــه الله)، ط: دار الشروق - القاهرة.
١٠- القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي.
١١- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط: دار صادر — بيروت،الطبعة الأولى.
١٢- المدخل إلى التفسير الموضوعي، لأستاذنا د. عبد الستار فـــتح الله ســـعيد ط: دار التوزيـــع والنـــشر الإســـلامية، ط الثانية،١٤١١هـــ،١٩٩١م، ص ٥٩،٦٠.
١٣- مفهوم السنن الربانية، رمضان خميس الغريـــب، ط: مكتبـــة الشروق الدولية، بتقديم د. محمد عمارة.
١٤- النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، ط: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان -تحقيـــق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم.

١٥- نظم الآلي من حكم الغزالي، د. رمضان خميس الغريـــب، ط: دار الحرم للتراث.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *